تطوير الخطاب الحسيني الضرورة والمبرّرات

الخطاب الحسيني هو مجمل ما يبيّن، ويكون موضوعه الإمام الحسين(ع) في رسالته، وثورته، وقيم هذه الثورة، وأهدافها، وفكرها، وثقافتها... فيعمل على بيان مجمل ما يتّصل بتلك المسائل في أبعادها التاريخية، والدينية، والأخلاقية، والتربوية، والاجتماعية، والسياسية.. ليكون هذا البيان معبّراً بصدق، وبشكل صحيح عن رسالة الحسين(ع) وتعاليمه، وعن أهداف ثورته وقيمها.

وسوف نباشر بحثنا بمدخل تمهيدي، قبل أن ننتقل الى بحث المبررات المنهجية لتطوير الخطاب ، وبيان أهمية هذا العمل، وما الذي يمكن أن يترتب على جمود الخطاب، وإعاقة تطويره.

1. **مدخل**: إنّ ما يُبيّن أو يُلقَى من خطاب حول قضايا عاشوراء، ورسالتها، وأهدافها؛ هو محاولة فهم لتلك الرسالة، والقيم، والأهداف. حين يبذل العلماء، والباحثون، والمحقّقون جهوداً مضنية ومشكورة، لفهم مجمل ما يتّصل برسالة الحسين(ع) وثورته، وقيمه، ليعمل تالياً على تقديمها إلى جميع المتلقّين، والمستمعين، والمشاهدين في هذا القالب الخطابي أو ذاك.

وعندما نقول إن ما يُبيّن من خطاب هو محاولة فهم للرسالة والقيم والأهداف، وليس هو الرسالة نفسها، أو الأهداف، والقيم نفسها؛ لا نريد بذلك التقليل من مكانة ذلك الخطاب ورفعته وسموّه، وإنّما نريد أن نضع ذلك الخطاب في سياقه العلمي والمنهجي الصحيح، حتى تترتّب على ذلك الفصل نتائجه العلمية الصحيحة. وإلّا فإنّ نتائج خاطئة عديدة تترتّب على عدم التفريق والفصل ما بين الرسالة الحسينية والخطاب الحسيني. فمثلاً يمكن الإلفات الى أن القول بأنّ الخطاب الحسيني هو محاولة فهم لرسالة الحسين(ع) ، وقيمها، وأهدافها؛ يفتح الباب على مصراعيه على النقد، والتجديد في الخطاب الحسيني. ممّا يؤدّي إلى إيجاد دينامية علمية، تسهم في تكامل الخطاب الحسيني،

وتطويره المستديم، ليكون يوماً بعد يوم بمستوى تلك الرسالة وقيمها، ومعبّراً بشكل أفضل عن أهدافها ومقاصدها.

أمّا عدم الفصل ذاك، فقد يؤدّي إلى تعطيل تلك الدينامية من جهة، وإلى إلصاق النقد بالرسالة الحسينية وقيمها من جهة أخرى، بدل توجيهه إلى الخطاب المعبّر عن تلك الرسالة وقيمها، والذي قد يخفق في بعض الموارد في التعبير الأفضل، أو الصحيح عنها. ممّا يؤدّي إلى فتح باب النقد، والتخطئة. وهو في الواقع ما يجب أن يتّجه – أي النقد – إلى ذاك الخطاب الحسيني، وليس إلى رسالة الحسين(ع) وقيمها.

إذاً، يقوم هذا البحث منهجيّاً على الفصل ما بين رسالة الحسين(ع) وأهدافها وقيمها، والتي هي متعالية وثابتة، وما بين الخطاب المعبّر عن تلك الرسالة وقيمها والذي هو غير متعالٍ – بالمعنى المعرفي وليس القيمي – وهو يقبل التغيّر، ويحتمل النقد، والتجديد، والتطوير.. وهو محاولة فهم لتلك الرسالة، وقيمها، وأهدافها. قد تصيب في كثير من الأحيان، لكنّها قد تخفق في أحيانٍ أخرى. فيكون الخطاب عندها تعبيراً عن الخطيب أو القارىء وثقافته، أكثر منه تعبيراً عن تلك الرسالة، وقيمها، وأهدافها.
ولا بد من الإشارة الى أن التغيّر في الخطاب الحسيني ليس علامة نقص فيه، بل هو دليل قوّة. وهو أيضاً شاهد على ما نقول. وهو- أي التغير- لا يحتاج إلى كثير جهد لإثباته، إذ إنّنا نلحظ هذا التغيّر وذاك الاختلاف في الخطاب ما بين زمن وآخر، وما بين مجتمع وآخر. بل نلحظه أيضاً ما بين قارىء وآخر، تبعاً لاختلاف المستوى الثقافي والعلمي، والخلفيات الفكرية، والعادات، والتقاليد، والأعراف، بل والعديد من العوامل، التي تترك أثرها في هذا المجال.

وعليه، سوف نبحث في مبرّرات التطوير، وفي أهميته، بل ضرورته، وفي السلبيات التي تترتّب على عدم التطوير ذاك، وأهمية النقد وتفعيله في هذا المورد أو ذاك، وصولاً إلى الخاتمة، وما تتضمّنه من توصية وخلاصة في هذا الشأن.

2. **مبرّرات تطوير الخطاب**: بناءً على ذلك الفصل المنهجي ما بين الرسالة وقيمها من جهة، والخطاب المعبّر عنها من جهّة أخرى؛ يمكن تلمس المبرّرات التالية، والتي تستدعي بشكل دائم، وعلمي، ومنهجي، العمل على تطوير ذاك الخطاب:

1. يجب أن يكون الخطاب معبّراً بشكل أفضل عن الرسالة وقيمها، وبما أن فهم الرسالة يتأثّر بشكل فاعل بعلومنا وخبراتنا، وبما أن هذه العلوم والخبرات تتطوّر يوماً بعد يوم؛ فهذا يعني مطلوبية الاستفادة من تطوّر تلك العلوم والخبرات ذات الصلة في تطوير الخطاب وجميع عناصره.
2. بغض النظر عن تطوّر العلوم والخبرات، ربما لم يفلح الخطاب، الذي تمّ تشكيله في هذا المورد أو ذاك في التعبير بشكل أفضل عن قيم الرسالة الحسينية وأهدافها لسبب أو آخر. وهو ما يستدعي البحث في ذاك الخطاب وقدراته التعبيرية، حتى ولو لم نلحظ ذاك التطوّر في العلوم والخبرات.
3. بما أن تشكيل الخطاب العاشورائي قد يتأثّر بجملة من العوامل والمؤثّرات الثقافية والاجتماعية وغيرها، وبما أن بعض تلك المؤثّرات قد لا يكون صحيحاً أو سليماً؛ فقد يترك ذلك أثره في الخطاب العاشورائي على شاكلة أخطاء وثغرات في موارد جزئية، بل ربّما يصل الخلل إلى بنية الخطاب، وبعض أسسه ووظائفه.
4. أليس من الصحيح أن يُقال إنّ من أسس بناء الخطاب العاشورائي ومقوّماته هو استجابته لظروف هذا المجتمع أو ذاك، ومشاكله وأولوياته وحاجاته؟ وبما أن هذه الظروف، وتلك المشاكل والأولويات متغيّرة، فهذا يعني ضرورة تغيّر الخطاب وتطويره، بتغيّر ظروف المجتمع، وأولوياته، وحاجاته، وزمانه ومكانه...
5. من الواضح إنّ للخطاب الحسيني جملة وظائف تربوية، ودينية، وإصلاحية، واجتماعية. ومن المعلوم أن هذا الخطاب كلّما تمّ بناؤه وتشكيله على أسس علمية صحيحة، وبطريقة هادفة ومنهجية وصحيحة؛ كلّما كان أقدر على قيامه بتلك الوظائف بشكل أفضل. وهذا ما يحتم العمل الدائم والدؤوب لتطوير ذاك الخطاب، ليقوم بوظائفه تلك بشكل أفضل من ناحية التعبير عن القيم الحسينية، واستجابتها لقضايا المجتمع وإنسانه.
6. هناك أبعاد ومديات سامية في ثورة الحسين(ع) ورسالته، ومدرسته. وقد يُتاح لنا يوماً بعد يوم- ولأكثر من سبب - فهم وتلمّس تلك الأبعاد، والمعاني، والمضامين الجديدة. ألا ينبغي عندها الاستفادة من ذلك الفهم الجديد لتلك المعاني والأبعاد، والعمل على إدراجها في الخطاب الحسيني، وتجديده، وتطويره على ضوء ذلك الفهم والمعاني؟

نخلص من جميع ما تقدّم إلى ضرورة العمل الجاد والواعي والهادف على تطوير الخطاب العاشورائي بشكل مستديم، من أجل ترشيد ذلك الخطاب، وتنقيته ممّا قد يكون علق به من شوائب، أو استقر فيه من أخطاء، أو أصابه من خلل في بنيته وتشكيله وصناعته. حتى ولو كانت هذه الموارد جزئية، أو ذات آثار محدودة. وليكون أقدر على قيامه بوظائفه، وأكثر تعبيراً عن رسالة الحسين وقيمه وأهدافه، وليكون يوماً بعد يوم أكثر رقيّاً وسموّاً، ويقترب أكثر فأكثر من سمو تلك القيم والأهداف، التي يسعى لمحاكاتها والتعبير عنها.

3. **أهمية تطوير الخطاب:** هناك جملة من الإيجابيات والنتائج، التي تؤكّد أهمية تطوير الخطاب العاشورائي وتجديده، والتي منها:

1. للخطاب الحسيني قدرة كبيرة على التأثير، وتشكيل الوعي، وبناء الثقافة...، ولذلك كلّما عمل على تشكيله بشكل صحيح وعلمي وهادف، كلّما أمكن الاستفادة بشكل أفضل من قدرته تلك على التأثير والفعل.
2. هناك جملة وظائف للخطاب العاشورائي، وهو كلّما عمل على تطويره، كلّما أمكن له أن يقوم بوظائفه بشكل أفضل، وأن يتجنّب تخلّفه عن بعض تلك الوظائف. أو لربما، وفي بعض الحالات، قيامه بما يخالفها، ويخالف مقاصدها.
3. كلّما عمل على تطوير الخطاب العاشورائي، كلّما كان أكثر تعبيراً عن رسالة الحسين وقيمه، وهذا يعني أنّه كلّما عمل على تطوير ذاك الخطاب، كلّما أمكن فهم رسالة الحسين(ع) وقيمها بشكل أفضل. وصولاً إلى العمل على تطبيقها وتسييلها بشكل أصح وأفضل.
4. إن تطوير الخطاب يعني العمل على تنقية الخطاب العاشورائي من تلك الشوائب والأخطاء، حتى لو كانت محدودة أو جزئية. وهذا يعني تلافي أي فهم خاطىء أو مشوّه – وصولاً إلى تجنب نتائج ذاك الفهم – لثورة الحسين ورسالته وقيمه، بل والمدرسة التي ينتمي إليها الحسين(ع) ، أو المجتمعات التي تحمل تلك القيم، وتسعى إلى تطبيقها.

وعلى ما تقدّم، يمكن القول إن الالتفات إلى هذه النتائج وغيرها – فضلاً عن المبرّرات التي ذكرت – يلقي على جميع المعنيين مسؤولية كبيرة واستثنائية للقيام بكل جهدهم، بهدف تطوير ذلك الخطاب، ورفع الموانع التي تعيق تطويره، ولفعل كل ما يلزم لإنجاز هذه المهمّة

بأفضل طريقة ممكنة، وبما يمكن أن يرتقي بالخطاب إلى سموّ رسالة الحسين(ع) وقيمها، وبما يمكن أن يفي تلك التضحيات التي بذلها الحسين(ع) وأهل بيته وصحبه بعضاً من حقّها.

4. **ما الذي يترتّب على جمود الخطاب؟** هناك العديد من السلبيات التي يمكن أن تترتّب على عدم تطوير الخطاب العاشورائي وجموده، وسوف نذكر هنا جملة تلك السلبيات:

1. إنّ هذا الخطاب – ولو في بعض مفرداته أو جوانبه – لن يكون ملائماً لبعض المجتمعات، أو مراعياً لخصوصياتها، أو مستجيباً لمشاكلها وقضاياها.
2. قد يعني ذلك استمرار بعض تلك الأخطاء والشوائب دون تنقيتها. وما يمكن أن يترتّب على ذلك من سلبيات ونتائج.
3. إتاحة الفرصة لأكثر من فهم خاطىء لرسالة الحسين(ع) وقيمه، وللإساءة إلى الخطاب العاشورائي نفسه، بل لتعزيز بعض المقولات الخاطئة والمغرضة عن تلك المجتمعات، التي تحمل رسالة الحسين(ع) ، وتسعى إلى تطبيقها.
4. تعطيل الخطاب العاشورائي عن قيامه ببعض وظائفه، أو بالحد الأدنى إضعافه عن القيام ببعض تلك الوظائف، وبلوغه أهدافها.
5. توسيع الشرخ بين رسالة الحسين(ع) وقيمها وبين الخطاب العاشورائي. فبدل أن يعمل على أن يكون الخطاب معبّراً بالكامل عن تلك الرسالة وقيمها، يصبح في بعض جوانبه أو عناصره معبّراً عن هذا المتكلّم أو ذاك في ثقافته وخلفيته الفكرية وتقاليد مجتمعه وأعرافها أكثر ممّا هو معبّر عن تلك القيم الحسينية ومعانيها وسموّها ورقيها.

5-خاتمة: نخلص من جميع ما تقدّم إلى أن تطوير الخطاب العاشورائي ليس ترفاً فكرياً، بل هو ضرورة دينية، وأخلاقية، وإنسانية، واجتماعية، وحضارية، لما للخطاب الحسيني من قدرة على الفعل والإنجاز والتأثير. حيث يمكن -فيما لو أحسن تشكيل ذلك الخطاب وتطويره بشكل دائم- أن نستفيد من طاقته وقدراته في الإصلاح، وإقامة العدل، ومواجهة الفساد، وعلاج الكثير من المشاكل الاجتماعية، والتربوية، والاقتصادية، والسياسية، التي تعاني منها مجتمعاتنا. هذا فضلاً عن جملة الوظائف الدينية ذات الصلة بهذا الخطاب.

إن ما اردنا التأكيد عليه، هو أنه توجد العديد من المبرّرات المنهجية والدينية، التي تستدعي العمل الجاد والواعي لتطوير الخطاب العاشورائي وترشيده، وجعله أقدر على القيام بوظائفه.

كما إن هناك أهمية كبيرة تترتّب على تطوير ذاك الخطاب، من ناحية أهمية النتائج التي تترتّب على ذاك التطوير؛ في حين أنّ العديد من النتائج السلبية يمكن أن تترتّب على جمود الخطاب وعدم تطويره.

من هنا ينبغي القول إن العناية بثورة الحسين(ع) ، ورسالتها، وقيمها، لا تنفك عن العناية بالخطاب العاشورائي وبنائه وتشكيله. وبما أن هذا الخطاب هو محاولة بشرية (جهد بشري) للتعبير عن تلك الرسالة وقيمها، بأفضل طريقة وأحسن السبل، التي توصل إلى تحقيق أهداف الرسالة، ووظائف الخطاب؛ من هنا ينبغي بذل أقصى جهد علمي ممكن بطريقة منهجية واعية، للوصول إلى أفضل مستوى من ذاك التعبيرعن تلك الرسالة، وتحقيق تلك الوظائف. وهذا يتطلّب التوصية بأمرين:

أولاً: أن يُبادر إلى مشروع علمي ومنهجي شامل، يتناول كل ما يتّصل بالخطاب العاشورائي، وأسس تشكيله، وأهدافه، ووظائفه، وعناصره، وأساليبه، ومفاهيمه، ومفرداته، ولغته، وجميع ما يتّصل به.

ثانياً: لا شكّ أن جهوداً كبيرة بذلت وتبذل في هذا الاتجاه مورد البحث، لكن هناك حاجة ملّحة إلى توحيد الجهود، وتنظيمها، وترشيدها، وحسن إدارتها بشكل منهجي شامل، من خلال الشروع بعمل مؤسّساتي يضم جميع الخبرات اللازمة، والتخصّصات المختلفة من علماء تاريخ، واجتماع، وتربية، ونفس، ودين، ولغة، وأدب... بحيث يعمل على:

1. نقد الخطاب الحالي، وتنقيته من أخطائه وشوائبه.
2. العمل المستديم لتطوير الخطاب العاشورائي في مختلف عناصره، وقضاياه، وجوانبه.

وهو ما يستلزم أن يضمّ ذلك العمل المؤسساتي:

1. مركز دراسات وأبحاث بمستوى تلك المهام.
2. كليّة أكاديمية، تعنى بالخطاب الحسيني. وينبني منهاجها العلمي على تخطيط منهاجي معاصر، يستفيد من معايير ضمان الجودة في بناء المناهج وتطويرها؛ بهدف إعداد الخطباء الحسينيين وتأهيلهم، والعمل على تدرجهم الى أعلى المراحل العلمية والأكاديمية قبل شروعهم في مزاولة الخطابة العاشورائية، لأن ذلك قد

يكون السبيل الأهمّ للتعبير عن تطوير الخطاب العاشورائي، وقيامه بوظائفه، وإيصاله إلى متلّقيه.

محمد شقير-أستاذ جامعي